أحزان الطفولة

أقصوصـ ـ ـ ـة مصرية

مات أبوه فأحدث موته هزة عنيفة فى نفسه , فجَرت بها ينـابيع الحـزن والألـم والخوف , وجاء الموت بغتة فلم يسبق بما يمهد له عادة من مـرض مـستفحل , أوحادث أليم , أو عمر بالغ فى الكبر.

وقد قابله صباح يوم الوفاة كعادته كل صباح وتناول معه طعام الافطار وقرأ عليه الصحف وجاذبه بعض الحديث ثم غادر البيت لقضاء بعض الشؤون فغاب ساعات معدودات , ولدى عودته وجد البيت – الذى غادره ساكناً تظلله الطمأنينة – صاخباً فزعاً يمزق سكونه التصويت ويئن تضاعيف جوه البكاء والعويل , وتلقى الخبـر الأليم بأن أباه العزيز – الذى كان يحادثه منذ حين قصير , والذى كان يبدو ممتلئاً صحة وعافية – انتقل فى دقيقة من الساعات التى غابها عنه إلى عـالم آخـر لا يبلغه حى فى ملايين السنين .. وأنه صنع هذه المعجزة الكبرى دون بذل أى جهد أو قوة , بل إنه صنعها بسلب الجهود والقوى جميعاً ... فبلغ به الانحـلال مـالا يبلغه استجماع القوى وتوثب العزائم , وغاب فى غمرات ذلك العـالم المجهـول الذى أعجزت حقيقته خيال العلماء والفلاسفة ...

على أنه لم يعن – فىتلك الساعات الرهيبة – بالتفكير فى كنه العالم الذى صعدت , أو هبطت , روح المتوفى إليه , ولكنه وقف مبهوتاً , ذاهل الحـواس , ذاهـب النفس , أمام حقيقة عجيبة لا يجهلها إنسان ولا يقبلها قبوله للحقائق المسلم بها أبداً , وهى أن ذلك الوالد العزيز الذى كان يملاء هذا البيت حياة وسيادة , صار جثـة هامدة ... هامدة جامدة كالتراب سواء بسواء , وأن دبيب الفناء يدب الآن فى بقاياه , وأنه سيظفر بها بعد حين قصير ويحولها إلى شىء تعافه النفس والحـواس بـل والحيوان والحشرات , وأنه أصبح بالنسبة إليه ذكرى لا أمل فى رجوع صـاحبها أكثر مما فى رجوع أول ميت من البشر ...

فلا لقاء ولا حديث ولا وجود له بعد اليوم ... !

وكبر عليه الأمر , لأن عواطفه وآلامه طغت على عقله فتساءل جزعـاً بـسذاجة الطفل : ((كيف أمكن أن يموت أبى ؟ !))

ثم بداله تساؤله غريباً شاذا , فتنهد آسفاً وقال : ((ليته امتد به العمر حتى أشـبع منه وحتى يهون علىّ فقده)) وثار على قول بعض المعزين : ((إن الموت نهاية كل حى)) أو قولهم : ((الموت لا يسخط عاقلاً)) . نعم ثار ثورة مكتومة علـى هذا التسليم المضحك وقال لنفسه : حقا إن الموت نهاية كل حى , ولكنـه نهايـة حقيقة بأن تذهل الحى عن نفسه وإن كان يقع فى اليوم الواحد مئـات المـرات . كيف لا ؟ .. أيكون من الحكمة أن نثور لضياع حافظة نقود أو لسقوط نائب فـى الانتخابات ولا نثور لأكبر حادث يقع لحياة الانسان , فيبدل روحها موتا وأنـسها وحشة وجمالها بشاعة ووجودها ذكرى ؟ ثم إنه رأى فى موت أبيه نذيرا مخيفـا يتهدده بالموت . لقد مات أبوه فلم لا يموت هو أيضاً ؟ وقد كان بمأمن مـن هـذه الفكرة فلاحت لعينيه سافرة عن وجهها البشع المخيف وملأت نفسه عذابا وسخرية مريرة ...

كان هذا الشاب أكبر ذرية أبية – وهم ثلاثة ذكور وثلاث أناث – وقد أوفى حظه من حب والديه على حظ إخوته جميعا , فكان فى صباه الطفل المـدلل المحبـوب الذى لا يقال له أبداً : ((لا)) ونادرا ما يقول ((بلى)) أو ((نعم)) , فنشأ على اعتقاد راسخ بأن الدنيا لعبة طيعة بين يديه , وأن جميع متعها قطوف دانية يجنيها أو يزهد فيها كيفما أراد , وأن الدهر لا يصيبه ولن يصيبه إلا بما يشاء , وأنه إذا كانت الدنيا – كما يزعمون – غاصة بالمتاعب والأحزان فهو بمنجى آمن منها . وكان إذا اعترضه صعب أو شاكسته مشقة هتف قائلا :

((أبتاه)) أو ((أماه)) , وسرعان ما يلين الصعب ويسلس الشاق , فلم يـصمد مرة لشدة أو يتغلب على محنة , وكتب عليه ما يكتب عادة على أمثاله من الخيبـة التامة فى الحياة المدرسية , فبقى فى حضانة والديه رغم تقـدم العمـر وبلـوغ الثلاثين , وتغير الكثير من مظهره , أما نفسه فظلت متشبثة بالطفولة المقنعة ...

ولذا كان ألمه لموت أبية غير ألم إخوته جميعاً – بما فيهم النساء – لأنه يعنى تهدم ركن من ركنى سعادته , وفقد قلب من القلبين اللذين يعيش على عطفهما ومحبتهما ...

ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن موت أبيه كان يقضى عليه بالفقر أو التـشرد , فقد ترك المتوفى لورثته عمارة كبيرة تدر عشرات الجنيهات كل شهر , ونـصيبه منها يكفيه ويضمن له حياة رغد تعوضه عما فقد من عطف ومافاته من عمـل أو وظيفة وكان أشقاؤه الثلاثة موظفين ذوى مستقبل حسن وأربـاب أسـر سـعيدة , وكانت شقيقاته أيضاً زوجات وأمهات يعشن فى كنف أزواج صالحين , فلم تخلف الوفاة له متاعب عائلية ولا حملته تبعات جديدة . والحق أنه كان من بين إخوتـه من يحسده على حياته الهادئة المطمئنة الخالية من المسئوليات والهمـوم , فكـان لذلك كله حقيقاً بأن يغتبط ويتعزى ويحمد ا كثيراً , ولكنه على العكـس جـزع جزعاً لا حكمة فيه وتردى فى أهوال الألم والعذاب والتشاؤم حتى أشـفى علـى الهلاك والفناء ... والحق أن العالم كان بريئاً مما حاق بنفسه من التغير والعـذاب لأنا رأينا ظروفه حقيقة بأن يحسده عليها أغلب المصابين فى آبائهم , فلـم يبـق سوى عالمه الداخلى وحده الذى يتحمل تبعتة آلامه , فقد أحدث المصاب فى نفسه هزة عنيفة عجزت عن تحملها أعصابه فتضعضعت واعتورها مـرض طـارىء انتقلت عدواه إلى العالم الخارجى فكسته لباساً أسود من الحزن والألم والبشاعة ...

وكانت الأيام القلائل التى تلت يوم الوفاة أيام عذاب قاتل وألم مبـرح ومخـاوف مروعة , وقد قضاها فى عزلة موحشة فريسة الهواجس يجتر أفكار الحزن واليأس ليلاً ونهاراً , وقد بدت له الدنيا مظلمة حالكة الظلمة عاطلة من الجمال , شـحيحة بالأمل , مليئة بالآلام والوحشية , ولاح لعينيه المحزونتين – فى الأفق القريـب – وحش الفناء فاغراً فاه يبتلع كل ساعة المئين من الناس البائسين الذين يتبعون فـى غير جدوى , ويتخبطون على غير هدى , ويشقون بالآمال ويأملون بالأوهام , ثم يهوون بين أنيابه الحادّة غير مجزيين على تعبهم سعادة , ولا متعزين عن شقائهم بأمل , ولا مخلفين غير الحسرة والسخرية المريرة ... فأى حياة هذه ! وما الفائدة

منها ؟ وما الحكمة من وجودها ؟ ... وأى عذاب هذا وأى رعب ! وكيف يستطيع أن يطمئن على حياته فى هذه المعركة الخاسرة ؟

حقاً إن دواعى الطمأنينة متوفرة لديه , فهو طليق من متاعب الرجال , وموفـور الرزق , ولكن من يضمن له أن تظل العمارة – التى هى مصدر رزقـه – آهلـة بالسكان ؟ بل من يضمن له ألا تخلو من الغد من جميع سكانها فيسلك مقهوراً فى عداد السائلين ويطرق أبواب إخوته جائعاً خجلا فيطرده منهم من يطرده أو مـن يطعمه وهو يضيق به ؟ ...

بل ما وجه المحال فى أن تمسى تلك العمارة أثراً بعد عين لحادث من الحـدثان ؟ إن شرارة من نار حقيقة بأن تحولها فى دقائق إلى كوم من رماد , أو هزة أرضية مباغتة قد تدكها دكا وتتركها خرائب وتلولا من أخشاب وأحجار , ومـا الحريـق ببعيد ولا الزلزال – فما هى بآمنة غداً ويل الهرم والبلى وتناقص الغلة , فالخراب واقع واقع ... والفقر آت آت ...

ومن الغريب أنه كان يشعر شعوراً قوياً بأن الفقر ليس هو البؤس الوحيد المـدخر له , وأن الدنيا لن تقنع فى تعذيبه بسلب موارد رزقه , بل ؛ وتوجس خيفـة مـن ناحية شقيقاته وخيل إليه خياله المريض أن رابطة الزوجية التى تخليه من تبعاتهن لن تدوم أبداً , وأن شياطين الشقاء ستفصم عراها بالشقاق والنزاع وتحمل إلى بيته شقيقاته البائسات مع أطفالهن الصغار فيصبح مسئولا عنهن جميعـاً بـصفته الأخ الأكبر والأعزب أيضاً فينوء بمتاعب الأزواج وما هو بالزوج ويرزح تحت تبعات الآباء وما هو بالأب , كأنه ليس حسبه ما ينتظره من الفقر والشقاء . وما يستطيع إنسان أن يشرك أشقاءه فى تحمل المسئوليات لأن لكل منهم أسرته , ولأنه أخوهم الأكبر الذى خلف والده ...

على أنه لا يأمن شر ذلك الشقاء الطاغى على أشقائه أنفسهم ؛ ولو أن الأمر كـان يتعلق بهم وحدهم ما اهتم ولا قلق , ولكنه كان يخشى أن تضيف المـصيبة التـى تنزل بأحدهم إلى حياته متاعب جديدة ؛ فلو أن واحداً منهم لحق بوالده لأصبح هو مسئولا عن أولاده , وهو يدرى ما كنه هذا الشعور القوى الغريب الذى يهمس فى

أعماقه بأن أشقاءه هالكون لا محالة , وبأنه سيأتيه نعيهم قريباً . أى شعور هذا ؟ إن أشقاءه مكتملوا الصحة والعافية , ولكن واأسفاه لا الصحة ولا العافية بالضمان الآمن ضد الموت ... ألم يقض والده وهو يتحدث ويـضحك ويتمتـع بالـصحة والعافية ؟ فالموت يتهددهم جميعاً ومتاعب الدنيا وهمومها تنظره عن كثب ... وما من قوة فى الأرض تستطيع أن تخدعه عن هذه الحقائق المخيفة ولا أن تمحو من نفسه الشعور بها , فهو يحس بدنوها منه ويتوقع حـدوثها سـاعة بعدسـاعة ... الموت والمتاعب والفقر ...

ما أنكد وجه الحياة ! إنها لم تقنع باغتصاب والده منه , فهى تكيد لشقيقاته البائسات , وتتربص بحيوات أشقائه النكوبين , وتعد العدة للقضاء على مصدر رزقهم جميعاً , وهى قوية بين يديها جميع الأسلحة المدمرة من موت وأمراض وشقاق وحرائق وزلازل , وسيجد نفسه عما قليل ضحية لقساوتها فقيراً معوزاً مسئولا عن جمـع غفير من كانت تلك الأيام كلها عذاباً دونه عذاب الجحيم لم يرتح فيها عقله سـاعة من شر ذلك التفكير الوبيل الذى يفرز السموم والعذاب والمخاوف , حتى تمكنـت الأوهام الأليمة من نفسة , وكدرت أوقات يقظته وأحلام نومه , وجعل يتوقع كـل ساعة أن يسمع عن انهيار العمارة أو ذهابها طعمة للنيران , أو أن يأتيه آت ينعى أحد أشقائه أو ينعيهم جميعاً , وخال كل طارق لبابه أختاً من أخواته راجعة إلـى بيته تسحب خلفها أطفالها ... وفاضت نفسه بالجزع فلم يستطع صـبراً وضـاق بعزلته فخرج هائماً وصار يتردد على بيوت أشقائه وشقيقاته ليطمئن عليهم وقـد وجدهم جميعاً سعداء آمنين , فعجب من جهلهم وغفلتهم ... ووَد لو يـستطيع أن يقول للرجال منهم ((خذوا حذركم من الأمراض والحوادث ...

ولا تعرضوا أنفسكم لهواء الشتاء ولا لشمس الصيف . ولا تترددوا فـى دعـوة الطبيب لأتفه الأسباب . وإياكم والترام والسيارات)) أو أن يقول للنساء ((أطمن أزواجكن طاعة عمياء . وتعرفن مواضع إرضائهم وتجنبن ما يضايقهم واصبرن عليهم وإن طغوا وتجنوا عليكن .)) ولكن الصراحة لم تواته فجعل يدور حـول غرضه دورا ولا يختار حديثا غيره . وكان يحدث نفسه كلما رجع مـن احـدى

زياراته : ألا سحقاً للذين يقولون أن الأهل عزة وقوة ! ويااليتنى كنـت وحيـداً لا أعرف لى أخا ولا أختا , فقيرا لا أملك ما يجوز أن آسف عليه .. واهـا ... مـا أسعد أبناء السبيل ! إن اللقمة التى يلتقطونها من القمامة ويزدردونها وهم يغنـون أشهى من الطعام الدسم الذى يهبط إلى جوفى مع الهموم والاحزان التى لا تهضم !! ..

وتغيرت صورته وطباعه تغير نفسه , فهزل واعتل وعلت وجهه صـفرة شـديدة وغارت عيناه وأحاطت بهما هالة سوداء , وتغيرت طباعه وعاش عيشة المذعور الخائف , فصد عن الدنيا وعزف عن الأصدقاء وهجر الطيبات والملاذ واسـتحال جوده شحا شديدا وتقتيرا قبيحا , لأنه رأى أن الحكمة أن يدخر المال لتلك الأيـام السود التى تنذره بالفقر والتبعات والمتاعب .

هذا ما صار إليه فى الأيام القلائل التى تلت وفاة والده . ولكن حمدا لم تدم هذه الحال , فمضت الأيام حثيثة وأخذ وقع الصدمة يهون على نفسه ونار اللوعة تبرد فى صدره , واعتاد غيبة أبيه كما كان معتادا لوجوده , ولم يحـدث الزلـزال ولا شبت النيران , نعم ولا صدع الشقاق شمل أخواته ولا اخترم المـوت أشـقاءه , ومضى يفيق من غيبوبة الحزن والخوف وينفض عن قلبه أشباح الفزع والأوهام , ويستروح الطمأنينة والسلام .. ثم طوى النسيان متاعبه فى زوايا مغلقة الأبواب , فرأى مرة أخرى دنياه القديمة : دنيا الجمال والمتع التـى يـشرق حـسنها فـى السموات والأرض والانسان والحيوان والجمـاد , لا دنيـا الـزلازل والحرائـق والأمراض والفناء , فانطلق يعدو فى طريقه من حيث حبسته المخاوف حينا ليس بالقصير

فكان فى مصابه – كما هو فى حياته – الطفل الغرير الذى قد يحزن حتى ليذهلـه الحزن عن نفسه فيرمى لعبته ويدعها تتحطم عند قدميه ويجهش بالبكاء ثم سرعان ما ينسى فيعود سريعا إلى نشوته ويغرق فى الضحك ...